-3-

الحضارات المعذبة
الإسلام والغرب

طارق علي

عندما زار المهاتما غاندي لندن عام 1931 لحضور مؤتمر حول مستقبل الهند ـ التي كانت تحت الاحتلال البريطاني ـ سأله أحد الصحفيين: «ما رأيك بالحضارة الغربية؟». ابتسم الثعلب العجوز وأجاب: «إنها فكرة جيدة». بعد خمس وسبعين سنة، يرجح أن يصادق العراقيون، الذين يعانون من انتهاكات سنتين من قمع الاحتلال الأمريكي، على آراء غاندي.

من أجل دمج العراق في الحرب على الإرهاب، بررت الولايات المتحدة الحرب عليه باعتبارها ضرورية لتحرير الشعب الطيب من طاغية شرير. وما إن تتم إزاحته، مع منافع لا يجنيها بناة الأمم الأجانب بل البيروقراطيون لتسهيل المرحلة الانتقالية، حتى تزهر الصحراء في شرق أوسط تغير وأصبح ديمقراطيا. وإذا كان الرئيس بوش وكادره من السدنة هم تجار الخوف، فإن رمسفيلد وصحبه، من أجل تبرير المغامرات الخارجية، هم تجار الأمل.

أمل بعض الناس في الغرب بأن يؤدي تدخل الولايات المتحدة في العراق إلى الديمقراطية. لكن قلة قليلة عانت من هذا الوهم الضلالي في العراق. فهؤلاء يعرفون تماما أن صدام حسين، في ذروة القمع في العراق، كان حليفا مفضلا للغرب، ونادرا ما تعرض لانتقاد وسائل الإعلام في الولايات المتحدة. وما حدث أكد شكوك العراقيين، فعبر إيماءة واحدة من الفاتحين، غاب انتهازيون مثل أحمد الجلبي (الذي وصفته «نيويوركر» بأنه الرجل «الذي باع الحرب»، وهو وصف في محله)، واحتجبوا عن الأنظار. أما الحليف السابق لصدام (الذي

حاول صدام فيما بعد قتله)، والبعثي السابق أيضا، إياد علاوي، فقد عين رئيسا لحكومة ـ دمية جديدة قبل الانتخابات المقررة التي أتاحت للجماعات الشيعية حكم العراق. لقي ذلك كله الترحيب من «المجتمع الدولي»، الأمر الذي أظهر مرة أخرى أن ما تتمتع به الولايات المتحدة من ثروة وقوة عسكرية هو الذي مكنها من «شراء» خدمات الدول الأفقر والأضعف.

على أي حال، ومع افتضاح الانتهاكات في سجون العراق، وأفغانستان، وكوبا، خسرت الولايات المتحدة أي مرجعية أخلاقية زعمت أنها تملكها، والنتيجة صراع حضارات حقيقي ـ صراع كان من الممكن تجنبه بسهولة.

في صيف عام 1917، حين دخل البريطانيون العراق، كان البيان المعبر عن الهدف متمسكا أيضا بأهداب الفضيلة: لقد جاء الجنرالات وكتائبهم لا كغزاة بل كمحررين. كانت السيطرة على العراق آنذاك جزءا من مخطط أكبر لتأمين الشرق الأوسط كطريق أوروبي إلى آسيا، وإعلان ذلك كان سيجرد قوة الاحتلال من سلطتها الأخلاقية الضرورية للنجاح. الاحتلال يتطلب دوما قناعا: ليبدو بهيئة الواهب الصالح والمانح الحميد لحياة أفضل، و«حضارة» أفضل.

امتلك البريطانيون بالطبع مصادر قوة ومزايا يفتقدها الأمريكيون. جسد أحدها تراث استعماري طويل وأسطوري تجذر في التزام بالاستيطان. فقد غادرت حشود ضخمة الجزر البريطانية لتسكن العالم. وبذلك، أسهم هؤلاء المهمشون، والمفقرون، والمنبوذون، في الوطن؛ والرواد، والمغامرون، والقراصنة، في الخارج ـ في تكوين مصدر عظيم آخر للقوة: من خلال آليات عمل «الميركانتيلية» البسيطة، أتخموا خزائن ويسمنستر برأس مال يتضخم باستمرار ورسخوا مركز بريطانيا كمصرف للعالم كله. والأهم أن البريطانيين آمنوا بأن إمبراطوريتهم فاضلة، ونافعة، وقوة حضارية.

وبالمقابل، يعاني الأمريكيون من فقدان ذاكرة فكرية وتاريخية، ومن إحساس بالإنكار يبلغ حد الوهم المضلل. وبالرغم من إصرار الولايات المتحدة على العكس،

شهدنا للمرة الأولى في التاريخ البشري وجود إمبراطورية وحيدة، هي الإمبراطورية الأمريكية في بداية «القرن الأمريكي الجديد». العسكر الأمريكيون منتشرون في 138 بلدا، ومتمركزون في مناطق جغرافية مهمة، مثل الشرق الأوسط، وهم يؤمّنون علاقات الشراكة الاستراتيجية عبر توفير الخدمات الدفاعية، والمعدات الحربية، والاستثمارات. وهذا يصدق خصوصا على إسرائيل وبلدان الخليج، التي تمثل هدفا لمقت وكراهية الأصوليين الإسلاميين في الشرق الأوسط. لإسرائيل اقتصاد مزيف، يعتمد اعتمادا متزايدا على تدفقات رؤوس الأموال الغربية، وهي تخسر تدريجيا زعمها بأنها الديمقراطية الوحيدة في المنطقة. في إحدى بلدان الخليج، تتجاوز استثمارات الشركات الأمريكية 400 مليون دولار في السنة، ولدى هذه الشركات أكثر من 200 مشروع مشترك (في قطاعي البتروكيماويات والطاقة بشكل رئيس) مع الشركات المحلية. ومن المؤكد أن دعم إسرائيل يفتح الأبواب أمام الاتهامات الإسلامية والعربية بأن الغرب يساعد/ ويحرض على الاحتلال اللامشروع لفلسطين ومحاصرة الفلسطينيين. لكن المؤشرات جميعا تدل بعد غزو العراق على أن العلاقة التبادلية القديمة العهد بين الولايات المتحدة وبلدان الخليج ـ النفط مقابل القواعد العسكرية، في نظر المنتقدين من الإسلاميين ـ سوف تؤدي إلى تحويلها إلى مرتع وهدف جديد للجهادية الإسلامية المقاتلة.

لا يوجد نظام يغل مكاسب الاستثمارات الأجنبية المالية مباشرة إلى الخزانة الأمريكية، التي يجب أن تتحمل تكاليف الحفاظ على الإمبراطورية الأمريكية وتوسيعها. وبالرغم من وضع أمريكا كأكبر دولة مدينة في العالم، إلا أن الإدارة الحالية ملتزمة على ما يبدو بالميزانية العسكرية التي تزيد على ميزانيات الدول الخمسين التالية مجتمعة. فما الذي تخاطر به هذه المبالغة في الطموح والتوسع العالمي؟ إذا صدق الاقتصاديون، كيف يمكن دفع تكاليف الضمان الاجتماعي، والصحي، ودولة الرعاية الاجتماعية.. الخ في مواجهة ميزانية عمومية «مدينة بمبلغ 45 تريليون دولار؟». لكن نظرا لرفض الإدارة استخدام كلمة «إمبراطورية»،

وإيمان الرئيس بوش بالهداية الإلهية وبمبدأ «القوة حق» (وليس الحق قوة)، ووهن التحديات التي يظهرها الليبراليون الأمريكيون لمطامح الولايات المتحدة الإمبريالية، فإن من الصعب تصور حدوث أي تغيير في المسار.

أحدث الأدلة على فقدان الذاكرة التاريخية وعقدة المسيح المخلص تكمن في الافتقار إلى استراتيجية خروج مدروسة في أعقاب «عملية الحرية العراقية»، الحرب التي كان بمقدور تلامذة المدارس تخمين نتيجتها على المدى القصير (عرف توني بلير أن هذه الحرب ستكون طويلة الأمد، والتواطؤ في هذه التمثيلية من جانب رئيس الحكومة البريطانية، الذي بقيت بلاده تحتل العراق حتى عام 1955، يثبت أن مرض الإيمان الأعمى والتكبر والتعجرف قد انتشر عبر الأطلسي). لكن هذا ليس كل شيء. فغياب التخطيط يدل على عقل جمعي قابع في حاضر دائم، وإصرار غرير على أن «التاريخ يبدأ معنا وبنا».

أسهم في هذا الحاضر الدائم التلفزيون والإنترنت ـ «الميزتين» اللتين نجا منهما البريطانيون عندما احتلوا العراق ـ إذ إن مثل وسائل الاتصال هذه هي التي سببت خسارة الولايات المتحدة الحرب الدعائية ومرجعيتها الأخلاقية (السيطرة على الصحفيين كانت مكيدة استراتيجية بارعة، نجحت ـ مع بعض الاستثناءات النادرة ـ في احتواء القصة المنقولة إلى المشاهدين في الوطن. ويمكن القول الآن بعد الحدث، إنها «المهمة المنجزة» الوحيدة). في الفترة الفاصلة بين إعلان الرئيس بوش الانتصار واليوم الصعب الذي انتقل فيه العراق إلى مرحلة الحكم الذاتي المثير للشبهات، استمرت أعداد التفجيرات والقتلى في الارتفاع، وأصبحت الأخبار السلبية والسيئة أمرا روتينيا ويوميا. الصورة أقوى تعبيرا من الكلمة، ووصلت الأمور إلى الحضيض حين بثت صور التعذيب في سجن «أبو غريب» على شاشات التلفزيونات العربية وظهرت على الإنترنت. لم يكن بالإمكان احتواء الضرر؛ فقد سقط القناع. وعلى الأرض، لم يكن المحررون أفضل حالا من السفاحين البعثيين في أجهزة صدام حسين الأمنية.

أكدت لجنة تحقيق تاغوبا التقارير المستقلة التي أشارت إلى أن الجنود الأمريكان اغتصبوا السجينات العراقيات. وأجبر بعضهن على تعرية صدورهن أمام آلات التصوير. وأرسلت المعتقلات رسائل إلى المقاومة تناشدها تفجير وتدمير السجن وغسل ما لحق بهن من عار وما كابدنه من تبريح. افتتضح الأمر حتى في وقت مبكر يرجع إلى تشرين الثاني/ نوفمبر 2003. إذ ذكرت «الغارديان» أن سجينة عراقية توسلت لها قائلة: «لدينا بنات وأزواج، بالله عليكم لا تفضحوا ما حصل»[1]. سجين عراقي آخر كان أكثر صراحة وبلاغة «الأمريكان أوصلوا الكهرباء إلى مؤخرتي قبل أن تصل إلى بيتي!»[2]. هذه هي الحضارة الغربية في أكثر أشكالها خشونة وفظاظة، والرد الانتقامي العنيف كان أمرا محتوما.

توزع في شوارع بغداد صورة لجندي أمريكي يضاجع امرأة عراقية. الحرب كفن إباحي! غطى الغرب على مثل هذه الصور (هل كان التهذيب هو الذي دفع جون اشكروفت، وزير العدل الأمريكي السابق، والمبشر المتعصب، الذي يتورد وجهه خجلا كلما لمح الثديين الحجريين العاريين لتمثال روح العدالة في المدخل المفضي إلى مكتبه، فأمر بسترهما؟). هل خاف البنتاغون من ردة فعل العالم عموما؟ وماذا عن النساء في أفغانستان، اللاتي سيتحررن كما أبلغتنا قبل بضع سنين سيدتا البيت الأبيض ـ هيلاري كلينتون ولورا بوش ـ بالغزو والاحتلال؟ مازالت النسوة في الانتظار، بينما لا يذكر أحد عمليات الاغتصاب وأعمال التعذيب التي يتعرضن لها.

في هذا الوضع اللاأخلاقي، رد الجانب الآخر بعدالة العين بالعين والسن بالسن. ردت المقاومة العراقية على الاغتصاب والتعذيب بالاختطاف، والسيارات المفخخة التي تستهدف العسكريين والمدنيين الأمريكيين على حد سواء، وقطع رؤوس الرهائن الغربيين في البداية، تسربت صور الاغتصاب والتعذيب (يبدو أن العار يسيطر على إعادة إنتاجها)، لكن فرصة استغلال هذه الانتهاكات المشينة قد نضجت، وسنحت، وتحولت القطرات المتسربة إلى طوفان دافق. علماء ورجال

الدين وغيرهم في الدول المجاورة، الذين يطالبون بطرد «الكفار الغربيين»، انشغلوا بإعادة سبك التاريخ القصير للحرب: منذ حرب الخليج عام 1991، والغرب يقصف العراق بالقنابل؛ العقوبات الاقتصادية شلت قدراته لا النظام البعثي؛ ومن غيرنا يدافع عن عزة الإسلام ضد أعدائه المتكالبين. يمكننا أن نسمع الصيحة: «أي حضارة تلك التي تنهار، الإسلام أم الغرب؟».

كنت في مصر ولبنان عندما تفجرت فضيحة التعذيب في «أبو غريب». لم أقابل شخصا (حتى بين الأوروبيين والأمريكيين العاملين هناك) فوجئ بما حصل. إذ إن أصداء التاريخ ـ خارج الولايات المتحدة ـ لم تتوقف أبدا عن الدوي. عمليات التعذيب في العراق أحيت ذكريات ما حدث قبلا في عدن والجزائر وفيتنام، والآن في فلسطين. لكن، ما الذي يفسر الصدمة التي أصابت الكثيرين في الغرب حين افتضح التعذيب؟ يمكن أن نعذر نسيان محاكم التفتيش أو التعذيب بالحرق أو مطاردة الهراطقة والساحرات في العالم المسيحي الذي عذب وقتل «المرتدين»، أو حتى المحاجة الجليلة لفولتير ضد وحشية التعذيب. لكن هل نسي الأمريكيون ما حدث في أمريكا اللاتينية وأمريكا الوسطى وآسيا وإفريقيا قبل أقل من خمسين عاما؟ حين لا يتحمل أحد عناء عد الأموات العراقيين، لماذا نفاجئ بإساءة معاملة الأحياء منهم؟ من أجل فهم غياب الذاكرة الجماعية هذه يجب أن نخوض في الحاضر بينما نخطو إلى الوراء في الزمن، وذلك في مواجهة أقوى دوافع إدارة أمريكية منتشية بالمستقبل.

في الثامن من حزيران/ يونيو 2004، ذكرت صحيفة «فاينشال تايمز» أن محامين أمريكيين قالوا: «يمكن للمحققين الأمريكيين أن يخرقوا بشكل قانوني الحظر المفروض في الولايات المتحدة على استخدام التعذيب خارجها»، و«لا يمكن للتشريعات القانونية التي تحظر التعذيب أن تبطل السلطات الممنوحة للسيد بوش»، ويبدو الآن واضحاً من وثائق الإدارة المتسربة أن تبرير الولايات المتحدة للتعذيب في «أبو غريب» (وفي خليج غوانتانامو) كان مؤسسا على فكرة

أن «مقاتلي» القاعدة غير النظاميين لا يستحقون، وبالتالي لا يمكن أن تنطبق عليهم، قوانين الحرب. وفي المعركة ضد المحاربين الفوضويين ـ هذا الشيطان الفريد الذي ينوي تدميرنا ـ تسعى الولايات المتحدة للالتفاف لا على معاهدات جنيف فقط، بل على قانون جرائم الحرب الأمريكي لعام 1996 أيضا. ولا جدوى من الادعاء بأن الجنود المتورطين كانوا في حالة لهو عفوي. فهؤلاء الرجال والنساء أخطؤوا في إطاعة الأوامر، لكن من يعاقب قادتهم؟

فقدان الذاكرة الجمعية في الغرب قد يكون نتيجة لعقدة التفوق. انتصرنا. هزمنا «إمبراطورية الشر». ثقافتنا، حضارتنا، أكثر تقدمنا بمراحل من عداهما، الأمر الذي قد يفسر موجات الصدمة التي أطلقها افتضاح عمليات التعذيب في «أبو غريب». من ملامح الهيمنة أن أولئك الذين لا يتماهون بها أو يخضعون لها يصنفون في خانة العدو. ولقي إعلان بوش بعد الحادي عشر من سبتمبر: «إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهابيين» قبولا ـ لفترة من الزمن ـ بدون مساءلة في شتى أرجاء العالم الغربي ومن النخب في كل مكان. كان ذلك مجرد تعديل فقرة من التوراة العهد القديم: «من ليس معي فهو ضدي». أما فكرة أن مثل هذا الشخص قد لا يكون ضدك لكنه يحبذ أسلوبا بناء أكثر إيجابية فقد اعتبرت/ وتعتبر محظورة ومحرمة.

كارل شميت، المنظر القانوني الموهوب للرايخ الثالث، هو الذي أصر على أن كلية السياسة مطوقة بفئتي «الصديق» و«العدو». لقد انسجم هذا الرأي مع معظم الإمبراطوريات، ومارست كتابات شميت تأثيرا نافذا في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وأقر مفكرون محافظون مثل ليو شتراوس بنفوذه وتأثيره. الرسالة ـ التي درسها وتعلمها وتبناها «الشتراوسيون» الذين يحيطون الآن بالرئيس بوش ـ واضحة ومباشرة: إذا لم يخدم بلدكم مصالح إمبراطوريتنا، فهو دولة معادية. يجب احتلاله، وإزاحة زعمائه عن السلطة، واستبدالهم بآخرين أكثر انقيادا وألين عريكة. ومن المأمول أن يصبح وجود «فيلق روماني» بمرور الوقت أمراً غير ضروري. لكن ما إن ينسحب، حتى تبدأ الأنظمة العميلة

بالتداعي. احتلال، انسحاب، تمرد، احتلال آخر، وأحيانا انعتاق ذاتي، نمط ساد في تاريخ العالم.

من أجل تبرير التجاوزات والمبالغات المغرضة، تتطلب الأنظمة الإمبريالية مشرعنين ومفكرين، وفي الولايات المتحدة انتقل المشعل من ليو شتراوس ومدرسة شيكاغو إلى صمويل هنتنغتون وفرانسيس فوكوياما. شغل هنتنغتون منصب كبير خبراء مكافحة التمرد في عهد إدارة جونسون خلال حرب فيتنام. وأسهمت مخيلته الخصبة في خطة «القرى الاستراتيجية»، بعد دراسة نصوص التمرد التي كتبها الأعداء ـ ماو تسي تونغ، تشي غيفارا، فيدل كاسترو، فو نغوين جياب ـ حول حرب العصابات حيث أكد الممارسون الأربعة جميعا استحالة النجاح بدون دعم السكان. ونظرا لفشل هنتنغتون في فهم الدوافع المحركة لمقاتلي حرب العصابات أو أسباب الحرب، واعتقاده بأن المشكلة الرئيسة تكمن في الروابط الجامعة بين المقاومة والشعب («سمك في الماء» حسب تعبير ماو)، تخيل إمكانية الفصل بينهما. الخطة تصورت تجميع الفلاحين الفقراء في «قرى استراتيجية» كانت عبارة عن معسكرات اعتقال ريفية تطوقها الأسلاك الشائكة ويحرسها الجنود ليلا نهارا. وقررت المؤسسة العسكرية الأمريكية أن تجرب الخطة، لكن ما أخفق هنتنغتون ورؤساؤه في فهمه هو أن العديد من «السكان» كانوا في واقع الأمر إما أعضاء في المقاومة الفيتنامية أو من المؤيدين لها. وسرعان ما بدؤوا التنظيم داخل القرى الاستراتيجية. وجرى تسريب مخططات ونقاط ضعف كل قرية إلى رجال حرب العصابات، وفشلت الخطة في النهاية فشلا ذريعا ومشينا.

لم يشارك فوكوياما في مثل هذه الأعمال الدرامية، لكنه كتب، كموظف في وزارة الخارجية الأمريكية، ورقة بحث سياسية حول باكستان خلال سنوات حكم الجنرال ضياء الحق «الوحشي الديكتاتوري»، مقترحا أن تدير باكستان ظهرها للهند وتركز على روابطها مع العالم الإسلامي، أي دول الخليج والسعودية. وشعر

الجنرالات بالامتنان لنصيحته، التي ناسبت حاجاتهم المادية والاستراتيجية، وعبروا عن إعجابهم بمبادرته. وحين انهار جدار برلين، بدأت نسخة جديدة من فكرة قديمة ـ انتصار الديمقراطية الليبرالية ـ تهيج فوكوياما.

ثم أتى الانهيار الشامل للاتحاد السوفييتي واستعادة شكل غريب من الرأسمالية القائمة على العصابات في العالم. فهل كان انتصار الرأسمالية وهزيمة إيديولوجية معادية يعني أننا في عالم بدون صراع أو أعداء؟ ألف فوكوياما وهنتنغتون كلاهما كتبا مهمة استجابة للوضع الجديد. رأى فوكوياما، الذي استحوذ عليه هيغل، الديمقراطية/ الرأسمالية الليبرالية باعتبارها التجسيد الوحيد لـ«روح العالم» الذي يعلم الآن «نهاية التاريخ» (تحولت العبارة إلى عنوان لكتابه)[3]. الحرب الطويلة انتهت وروح العالم القلق بإمكانه أن يرتاح ويسترخي الآن ويشتري دارة في ميامي. أصر فوكوياما على أنه لم يعد هناك أي بدائل متاحة لأسلوب الحياة الأمريكية. أما فلسفة وسياسة واقتصاد «الآخر» ـ أي كل تنويع ونسخه من الاشتراكية/ الماركسية ـ فقد اختفت جميعا وغاصت في المحيط، لتصبح قارة غارقة من الأفكار التي لن تصعد إلى السطح مرة أخرى أبدا. انتصار رأس المال لا يمكن عكسه أو إبطاله. إنه انتصار عالمي شامل.

لم يكن هنتنغتون مقتنعا بهذا كله، وحذر من مغبة القناعة والرضى. وتحدى من قاعدته في هارفارد فرانسيس فوكوياما بمجموعة من الأطروحات نشرت أولا في مجلة «فورين افيرز» («صدام الحضارات؟»، وهي عبارة نحتها بالأصل بيرنارد لويس، المفكر الأثير الآخر لدى الإدارة الحالية). ثم تحولت هذه الأوراق إلى كتاب بعنوان «صدام الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي». واختفت الآن إشارة الاستفهام. وافق هنتنغتون على عدم وجود بدائل إيديولوجية للرأسمالية الموجودة حاليا، لكن هذا لا يعني «نهاية التاريخ». فما زالت هناك عداوات باقية. «خطوط الانقسام الكبرى بين البشر والمصدر المهيمن للصراع سيكون ثقافيا..

صراع الحضارات سوف يهيمن على السياسة العالمية»[4]. شدد هنتنغتون على وجه الخصوص على الأهمية المستمرة للدين في العالم الحديث، وهذا هو الذي دفع الكتاب إلى قمة لوائح الكتب الأكثر مبيعا بعد الحادي عشر من سبتمبر.

ما الذي عناه بكلمة حضارة؟ في وقت مبكر من القرن الماضي، تخلى اوزفالد شبنغلر، حفيد عامل المناجم الألماني، عن مهنته كمدرس وتحول إلى الفلسفة والتاريخ، وكتب نصا أصيلا متقنا. في «انحطاط الغرب»، وضع شبنغلر الثقافة (كلمة مرتبطة فلسفيا بالطبيعة، والريف، والحياة الفلاحية) في مواجهة الحضارة، التي هي حضرية/ مدينية وستصبح موقع الفوضى الصناعية، وتحكم على الرأسمالي والعامل معا بحياة العبودية للسيد ــ الآلة. بالنسبة لشبنغلر، الحضارة مفعمة برائحة الموت والدمار والإمبريالية. أما الديمقراطية فهي ديكتاتورية المال و«الدم يسقط المال ويقضي عليه»[5]. في حين أن مقدم «القيصرية» سيغرقها بـ«الدم» لتصبح الفصل الأخير في تاريخ الغرب. لو لم يهزم الرايخ الثالث في أوروبا، بواسطة الجيش الأحمر بشكل رئيس (إذ انكسر العمود الفقري للجيش الألماني في ستالينغراد وكورسك، والأغلبية الساحقة من الجنود الألمان التعساء دفنوا في السهوب الروسية، لا على شواطئ نورماندي أو في الاردين)، لاقترب تنبؤ شبنغلر من التحقق.

كان شبنغلر واحداً من أوائل وأعنف المنتقدين للمركزانية الأوروبية واستعلائها الثقافي، ويمكن رؤية هذه النظرة الواضحة للعالم، المابعد حداثية في كثافتها لكن ليس في لغتها، في المقطع الغنائي التالي:

أرى، مكان ذاك الوهم الباطل الفارغ لتاريخ خطي واحد، دراما عدد من الثقافات القوية، تنبثق كل واحدة منها بفعل قوة بدائية من تربة الوطن الأم تبقى مرتبطة بها طيلة دورة حياتها برمتها؛ وتدفع بطابعها مادتها، وبشرها، وصورتها؛ ولكل منها أفكارها، وعواطفها، وحياتها، وإرادتها، ومشاعرها، وموتها. هنا في الحقيقة ألوان وأضواء وحركات لم تكتشفها بعد عين الفكر وباصرة العقل. هنا،

الثقافات والشعوب واللغات والحقائق والآلهة والمناظر والمشاهد تزهر وتعمر كالسنديان والصنوبر، والزهر، والأماليد، والأوراق. لكل ثقافة احتمالاتها الجديدة في التعبير عن الذات، التي تنبثق وتنضج وتتفسخ ولا ترجع أبدا[6].

وبالتغاير مع ذلك، كما حاجج، تكمن الدورة التدميرية للحضارة:

> الحضارات هي أكثر الحالات التي تقدر عليها الأنواع المتطورة من البشر ظاهرية واصطناعا. فهي خاتمة، موت يعقب الحياة، تصلب يلي التوسع، عصر فكري، مدينة العالم الصاعقة المبنية من الحجر تتبع أمنا الأرض.. إنها نهاية، مبرمة غير قابلة للنقض، لكنها بالضرورة الداخلية، تبلغها مرة بعد أخرى.. الإمبريالية حضارة خالصة. في هذا الشكل الظاهراتي تحدد مصير الغرب الآن بصورة مبرمة.. التوسع هلاك، شيء شيطاني ومكثف، يدفع القوى إلى الخدمة ويستهلك ويستنفد مرحلة مدينة العالم[7].

بعد ثلاثة أرباع القرن، عاد هنتنغتون إلى مواضيع شبنغلر، لكنه قلب رسالتها رأسا على عقب. إذ خلط بين الثقافة والحضارة. الحضارة بالنسبة له ثقافة عليا، «أعلى تجمع ثقافي لجماعة من الناس وأوسع مستوى لهوية ثقافية تمتلكها جماعة، وتميز البشر عن الكائنات الأخرى»[8]. أما مخطط هنتنغتون لأعلى ثماني ثقافات/ حضارات فيتكون من الحضارات الغربية، والصينية/ الكونفوشيوسية، واليابانية، والإسلامية، والهندوسية، والسلافية/ الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية، وأضاف إليها مترددا الإفريقية (التردد يعود إلى صوت داخلي متشكك بأهلية إفريقيا لتكون حضارة). أما الدين «فربما يكون القوة المركزية التي تحفز وتحشد الناس»[9]. والهوة تكمن بين «الغرب والبقية»[10]. فالغرب هو الحضارة الوحيدة التي تدافع عن الحرية والديمقراطية والسوق الحر، بينما تقاوم البقية مساعي وجهود الغرب لترويج ونشر هذه القيم النبيلة. الغرب في أوج قوته، ويستخدم الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي لفرض إرادته على العالم، كما يحاجج هنتنغتون. وهو ينبذ فكرة وجود فارق حقيقي بين الأحادية والتعددية لأن

«عبارة ـ المجتمع الدولي ـ ذاتها أصبحت اسما جمعيا ملطفا لإضفاء الشرعية الدولية على الأفعال التي تعكس مصالح الولايات المتحدة والقوى الغربية الأخرى»[11]. وهو مصيب في ذلك، وإن أخطأ فيما يتعلق بالدين.

لا أعتقد أن الإيمان الديني هو المحدد الحاسم في الحشد الجماهيري على مستوى العالم. لكنه يلعب دورا يختلف ويتفاوت في مداه. ومن المؤكد أن الغرب منقسم على هذا الصعيد: أوروبا ليست متدينة بشكل عميق، في حين أن الوضع في الولايات المتحدة مريع. فوفقا لآخر استطلاعات الرأي، يؤمن 95٪ من الأمريكيين بوجود الرب، بمن فيهم نسبة 91٪ يعتبرون أنفسهم ليبراليين (70٪ فقط يؤمنون بالملائكة، وهذا ما يقلقني دوما. أود لو أن المؤمنين بالملائكة هم الأغلبية لأن ذلك يوفر اعتقادا إيمانيا مع لمسة سوريالية طفيفة. استطلاع «غالوب» [25/ 2/ 2003] يبعث على الرضى بشكل أكبر، حيث يكشف اعتقادا بوجود الشيطان من قبل الديمقراطيين والجمهوريين على حد سواء: الديمقراطيون أتقياء إلى درجة أن 67٪ منهم يؤمنون فعلا بوجود الشيطان، ولا يتخلفون في هذا السياق عن الجمهوريين إلا بمقدار 12 نقطة مئوية ـ لماذا يبعث ذلك على الرضى بشكل أكبر؟ لأن «من يعتقد بوجود الشيطان فهو ينتمي له»، حسبما كتب توماس مان في «دكتور فاوست»). لا يلعب الدين دورا مشابها لا في الصين ولا روسيا، وأنا مقتنع بأن عدد غير المؤمنين في ديار الإسلام يفوق ما يمكن إعلانه على الملأ، لكن سأعود لاحقا إلى هذا الموضوع.

في عالم هنتنغتون، ستكون أخطر توليفة هي التي توحد الحضارتين الكونفوشيوسية والإسلامية، حيث لا تشترك أي منهما مع الغرب في ارتباطه بحقوق الإنسان. وكلتاهما، كما قد يضيف، يمكن أن تبتز الغرب وتحتجزه كرهينة (وبسبب حذر الولايات المتحدة من الصين، تدفع باتجاه فتح أسواقها للتجارة، آملة بأن تفعل محدلة الثقافة الأمريكية فعلها ويترسخ مبدأ البيع. مع إرضاء الجماهير بالتسوق). تحتم استراتيجية الولايات المتحدة العالمية السيطرة على

مخزون النفط في العالم، بينما يعتمد اقتصادها محليا اعتمادا شديدا على الواردات الرخيصة من الصين.

سرعان ما ظهرت بعد كتاب هنتنغتون كتب أخرى انضمت إلى الجدل وشددت على أهمية الفوارق الثقافية في فهم السياسة والاقتصاد والديموغرافيا.. الخ. لكن معظمها همش بعد أن ركزت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الجدل على «تهديد الإسلام المتطرف» و«الحرب على الإرهاب». وبدلا من أن يكون الغرب ضد البقية، جعل التحول الجديد البقية ضد الإسلام. ومما يحسب لهنتنغتون أنه لم يستسلم لإغراء حجج المحافظين الجدد المهيمنة على إيديولوجية البيت الأبيض قبل الكارثة في العراق. وقام بتعديل لآرائه وقدم الحجة على أن المشكلة الرئيسة هي الصدام داخل الإسلام ولا علاقة لها بصدام الحضارات، وهذا خطأ أيضا لكنه يبعث على التساؤل: كيف يمكن أن يتوافق ذلك مع رأيه بأن «الدين والعائلة، والدم والاعتقاد، جوانب يتماهى الناس بها ويقاتلون ويموتون في سبيلها»(12).

وما هو هذا الإسلام، الفزاعة الجديدة المستخدمة لتخويف الأطفال؟ فكرة الإسلام ذاتها، كمصفوفة مؤسسية تنظم الإرهاب والمقاومة ضد الغرب في شتى أرجاء العالم، هي صورة ممسوخة للماضي والحاضر. فخلال معظم سنوات القرن العشرين، كان الإسلام المنظم أو السياسي، عادة، داعما للإمبراطورية البريطانية، ثم لخليفتها الأمريكية فيما بعد. فهو قوة اجتماعية محافظة. وطيلة القرن العشرين، ظل الدعاة المسلمون المتزمتون (الذين يعتبرون حاليا العدو رقم 1)يرسلون إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي للتبشير بفضائل الدين ومناهضة الثورة، وحين لا تسود الحقيقة المقدسة على العقل، هنالك المحافظ المتخمة بدولارات النفط للمساعدة على تجنيد متطوعين جدد. عندما تفشل الطريقتان تنظم الولايات المتحدة انقلابا عسكريا. حدث ذلك مثلا في إندونيسيا.

في الجامعات الباكستانية خلال أوائل الستينيات، انخرط الاشتراكيون المسلمون ــ مثلي ـ في جدل دائم مع الإسلاميين، الذين كانوا يعلنون استحالة فصل الدين عن الدولة لأن «الإسلام نظام حياتي متكامل». وكنا نضحك حين نسمع هذه الجملة وكثيرا ما نستخدم الأسلوب الاستباقي عبر التشدق بها وترديدها بين بعضنا بعضا كالببغاوات. أحيانا، حين يحتدم الجدل، كنا نسأل: «ما هو أكبر بلد مسلم في العالم؟». فيأتي الجواب: «إندونيسيا!». فنرد بسؤال من جانبنا: «ما هو أكبر حزب شيوعي في العالم اللاشيوعي؟». وحين لا نسمع جوابا، ننشد معا: «الحزب الشيوعي الإندونيسي». هذه المناقشات التي كانت تدور بين الشباب لم تكن مجرد معابثة هازلة. كنا نقدم الحجة والدليل على أن من المحتمل تماما أن نكون جزءا من الثقافة الإسلامية، ونقدر قيمة جوانبها الجيدة، دون أن نكون من المؤمنين. لقد قضى الجنرال سوهارتو عام 1965 على اليسار الإندونيسي (الذي ضم أكثر من مليون ونصف المليون شخص). وكان ذلك من أفظع المذابح التي ارتكبت خلال الحرب الباردة، وحظيت بدعم كامل من الولايات المتحدة. أما الفراغ الذي خلفته المذابح في إندونيسيا قبل تسعة وثلاثين عاما فقد ترك المجال مفتوحا ليملأه الجيش والإسلاميون. النمط ذاته، وإن لم يكن على النطاق نفسه، حدث في أماكن أخرى.

أتذكر جيدا المزاج العام السائد في باكستان خلال عامي 1969 ـ 1970، فالتمرد الذي دام ثلاثة أشهر ضد الدكتاتور العسكري الممالئ للولايات المتحدة من قبل الطلاب والعمال والفلاحين أدى إلى تمتين الروابط والعلاقات المجتمعية. ففي يوم يخرج المحامون في مظاهرة إلى الشوارع، لتخرج العاهرات في اليوم التالي. وتداعت الديكتاتورية وأجريت أول انتخابات عامة في تاريخ باكستان. وطيلة مدة الحملة، هيمنت التيارات العلمانية والاشتراكية على السياسة. أما الجماعات الدينية فقد هشمت تماما وكثيرا ما لجأت إلى العنف. وحين وصلت إلى مولتان في زيارة أكاديمية لأخطب أمام حشد مؤلف من خمسين ألفا من العمال والفلاحين، اعتدى الجناح الطلابي من الجماعة

الإسلامية بالضرب على الطلاب الذين أتوا لاستقبالي في المطار ومرافقتي إلى مكان الاجتماع. قذفونا بالحجارة بينما وقف رجال الشرطة متفرجين. كان ذلك حدثا متكررا في تلك الأيام، لكن أسلوب التهديد والترهيب لم ينجح.

شهدت انتخابات عام 1970 في باكستان هزيمة ساحقة للإسلاميين وإلغاء دورهم تماما كقوة سياسية. وحين خطب رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو أمام حشد جماهيري في لاهور، بدأت مجموعة من الملالي ورجال الدين كيل الشتائم له. وكان لبوتو، الذي اعتاد أن يتحدث أمام عدة لقاءات واجتماعات كل يوم، مساعد يحمل، وعندما يتهدج صوت رئيس الوزراء ويخشوشن، تظهر كأس مترعة بالسائل العقيقي لتريح رئيس الوزراء المتعب. حضر اجتماع لاهور الحاشد نصف مليون شخص إضافة إلى الدبلوماسيين والصحفيين الأجانب وغيرهم. وما إن رشف بوتو من الكأس، حتى وقف رجل ملتحٍ وأشار إليه صائحا: «انظروا أيها الناس. انظروا ماذا يشرب». رفع بوتو، المغرم بالأجوبة السريعة المفحمة، الكأس وأعلن: «أجل، انظروا، إنها شربات». وضج الحشد بالضحك. ووقف الملالي المتوزعون في كل مكان وأجابوا: «إنها شراب [كحولي]» .أخيرا فقد بوتو أعصابه وصرخ: «أجل أيها الحقراء، إنه شراب. أنا ـ خلافا لكم ـ لا أشرب من دم الشعب». شعر الجمهور الحاشد بالنشوة. وعلا الهتاف العفوي مجلجلا: «يعيش بوتو! يعيش بوتو ويشرب!».

تغير الزمن واختلف الوضع الآن، لكن ليس في العالم الإسلامي وحده. وأنا أشدد على الأحداث المختلفة جدا في إندونيسيا وباكستان لأظهر أن أكبر دولتين إسلاميتين خضعتا للعواطف والتأثيرات السياسية ذاتها كحال بلدان العالم غير الإسلامي. وأنا لا أدافع أو أقدم اعتذارا عن الإسلام المتطرف، والفساد المستشري والمنتشر في البلدان الإسلامية، والملالي الرجعيين، لكن إذا كانت الحضارة الإسلامية قد أصبحت قوة مستنفدة[13]، وبحاجة إلى إصلاح من القمة إلى القاعدة، فيجب تجنب الأجندات السياسية وتفكيك ونقد ما حدث فعلا.

نحن بحاجة إلى رؤية اجتماعية تتجاوز النزعة الدينية المحافظة في العالم الإسلامي، والنموذج الأمريكي لن ينجح بكل بساطة. إذ أثبت أنه بديل غير قابل للتطبيق والحياة. في إندونيسيا وباكستان، هنالك ديناميات داخلية تطالب بالإصلاح. وهؤلاء الذين حكمت عليهم الإدارات الأمريكية المتعاقبة بأنهم «شيوعيون» أو «اشتراكيون» هم في الحقيقة معتدلون ملتزمون بالديمقراطية. هؤلاء هم الإصلاحيون الذين بحاجة إلى الدعم الخارجي. مرة إثر مرة، أدى قصر نظر الولايات المتحدة بسبب الحرب الباردة إلى دعم الطرف الخطأ. واليوم، لن يحدث تغيير في الشرق الأوسط حتى يجيب الغرب عن الأسئلة البسيطة التي تطرح في الشارع: لماذا العراق بالذات؟ لماذا الدعم الشامل لإسرائيل والعمى الكلي عن معاناة الفلسطينيين؟

لهذا السبب أرفض الأطاريح الحضارية لهنتنغتون والمنظرين الإيديولوجيين الإسلاميين الذين يعتقدون بأن اختلاف الدين والدم هو العامل الحاسم في تحديد خط الانقسام في العالم الحديث. كما أرفض أفكار المسلمين الذين اقتلعت جذورهم في الشتات في أمريكا الشمالية وأوروبا، المتلهفين على إرضاء «الآخر»، التواقين للاندماج ـ على أي أساس كان ـ إلى حد الركوع والانضمام إلى الجوقة السقيمة، للفوز بالجوائز الدنيوية والمناصب وجلب انتباه وسائل الإعلام. وعلى رأس هؤلاء أحمد الجلبي، الخادم العراقي الخانع لمسؤولي البيت الأبيض.

من النقاط التي كررها أساتذة وخبراء حقوق الإنسان أمام الجامعات الأمريكية وجماعات «المجتمع المدني» لتبرير التدخلات الغربية، بما فيها غزو واحتلال العراق، أن الديمقراطية وتعددية المؤسسات المستقلة عن الدولة، لكن المتجذرة في الرأسمالية، هي التي تحدد وتعرف ثقافة الغرب. في عام 1919، هبت ريح مناهضة للإمبريالية في أفغانستان ونصب الاتحاد القبلي أمان الله ملكا على البلاد. كان تحديثيا ومعجبا بكمال أتاتورك. كما كانت زوجته ثريا مؤيدة للحركة النسوية. وبدأ المفكرون الوطنيون المحيطون بأمان الله يعدون

مسودة للدستور، شملت منح حق الانتخاب لجميع البالغين. ولو قدر للدستور أن يطبق لحصلت النساء الأفغانيات على حق التصويت قبل أخواتهن في بريطانيا والغرب. أما السبب وراء عدم تطبيقه فهو أن البريطانيين، عبر عميلهم المحنك ـ ت. ي. لورنس ـ حرضوا بضع قبائل، ودفعوا المال لها، وأبلغوها بأن النساء يشجعن على التحول إلى بغايا. ثم تدخلوا مباشرة لإسقاط أمان الله.

من المفارقة أنه مع تدهور وانحطاط ثقافة الحياة الديمقراطية في الغرب، يتنامى الطلب على حرية التعبير عن الذات في معظم أرجاء العالم الإسلامي. إذ يتلهف المواطنون على اختيار حكوماتهم بأنفسهم، لكن ثمة مشكلة هنا، تتصل بما أشار إليه هنتنغتون باعتباره «مفارقة الديمقراطية»[14]. أو بلغة أسهل: قد تنتج الديمقراطية حكومات منتخبة معادية لأمريكا. هذا صحيح. قد. لهذا تفضل الولايات المتحدة أنظمة الحكم الفاسدة والعسكرية والديكتاتورية.

والعراق؟ المطالبة بمجلس نيابي منتخب (التي قدمها أولا آية الله السيستاني) مماثلة لمطلب الثورة الفرنسية. لكنها قد تنتج على الأرجح حكومة توحد العراق على أساس هدفين واضحين لا لبس فيهما: انسحاب جميع القوات الأجنبية وسيطرة العراق على ثروته النفطية. فاحتلال بلد ثم مشاهدته وهو يتمرد على واشنطن سيكون شديد الإيلام، لذلك عينت دمى تحركها كما تشاء واستمرت المقاومة. لقد شكلت الحرب عونا هائلا لـ«القاعدة»، ومكنتها من تجنيد مئات الأنصار والمؤيدين الجدد.

في هذه الأثناء، تزداد عـزلة نظام الملالي المتهالك عن شعبه في إيران المجاورة. 63٪ من السكان تحت عمر الثلاثين، ولم يعرفوا في حياتهم سوى حكم رجال الدين. وهم يريدون الآن حكما مختلفا. وبالرغم من رجال الدين، تتمتع إيران بثقافة شبه سرية مفعمة بالحيوية والنشاط. الموجة الجديدة من السينما الإيرانية تشهد ازدهارا كبيرا، وذلك مع هيمنة المنشقين الإيرانيين المتحمسين

لاستخدام الإنترنت على الشبكة الإلكترونية. وفي حين يستمر رجال الدين في قمع حرية الكلام (وإغلاق الصحف المعارضة، مثل «نيشات»)، إلا أن هذه الردود العنيفة تقاضى أمام المحاكم. إيران تقدم الأمل. وحين يهزم الملالي، فإن الشعب الإيراني الذي قبل زعامتهم للتخلص من الشاه سوف يدشن عهدا إصلاحيا ستكون له تأثيرات واسعة النطاق وبعيدة المدى. ولن أفاجأ إذا حدث انقسام دائم بين المسجد والدولة بعد ثورة أخرى في إيران. وفي المناخ العام السائد حاليا، سوف يتأخر الانعتاق الذاتي الإيراني أو يتوقف إذا حدث تدخل أجنبي. والانتخابات الأخيرة التي أوصلت رئيسا متشددا إلى سدة السلطة كانت رمية يائسة من قبل رجال الدين، ولا يرجح نجاحها.

في عام 1995، نشر المنظر الإيديولوجي الأمريكي ـ الأفغاني زلماي خليل زاد (الذي عين «حاكما» في كابول وانهمك في إبرام صفقات تفاوضية مع أجنحة طالبان المختلفة للحفاظ على صنيعته، ثم أصبح «حاكما» في العراق)، نشر مقالة أشار فيها إلى وجوب الحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة مهما كان الثمن ـ وبالقوة إذا دعت الضرورة! ووفرت أحداث الحادي عشر من سبتمبر الفرصة لاختبار النظرية. وبالنسبة للرئيس بوش، جسد أحمد الجلبي مسندا مثاليا لهذا التاريخ، لكن العراق أثبت بالدليل القاطع أن استخدام القوة يمكن أن يستفز مقاومة قوية.

الثقافات والحضارات كانت دائما وما تزال هجينة. أما اقتراح العكس فيعني الانئسار بالشيطانين التوأمين: الإيديولوجيا والشوفينية. إن مأساة الانتهاكات في «أبو غريب» تتمثل في كونها أوجدت صدام حضارات حيث لا يوجد مثل هذا الصدام. وبسبب قصر النظر الذي يعاني منه الغرب، فقد زود الإسلام المتطرف بالذخيرة التي كان متعطشا إليها. على المدى القريب، سوف يصر الرئيس بوش على نظافة يديه وعلى أن قوى الظلام كامنة خلف كل باب. وإذا استمر هذا العمى وتواصلت هذه الأكاذيب، فإن احتمالات المدى البعيد ستكون يائسة ومن الصعب تصورها.

هوامش

1ـ انظر:

Luke Harding, "G2: Women: The Other Prisoners: Most of the Coverage of Abuse at Abu Gharib Has Focused on Male Detainees. But What of the Five Women Held in the Jail, and Elsewhere in Iraq?," The Guardian, 20 May 2004, p. 10.

2- Dahr Jamail, Asia Times Online, 11 January 2005.

http://atimes01.atimes.com/atimes/middle_east/ga11ak01.html (accessed 27 September 2005).

3ـ انظر:

Francis Fukuyama, The End of History and the Last Man (New York: Free Press, 1992).

4- Samuel Huntington, "The Clash of Civilizations?", Foreign Affairs, 72 (3), summer 1993, p. 22.

5ـ انظر:

Oswald Spengler, The Decline of the West: Complete in On Volume, trans. Charles Francis Atkinson (New York: A. A. Knopf, 1932), p. 507.

6- Ibid., p. 21.

7- Ibid., p. 31.

8ـ انظر:

Samuel Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York: Simon & Schuster, 1996), p. 43.

9- Ibid., p. 66.

10- Ibid., p. 33.

11- Ibid., p. 184.

12ـ انظر:

Samuel Huntington, “If Not Civilizations, What? Samuel Huntington Responds to His Critics,” Foreign Affairs, 72 (5), November/ December 1993. Article available at:

http://www.foreignaffairs.org/ 19931201faresponse5213/samuel-p-huntington/if-not-civilizations-what-samuel-huntington-responds-to-his-critics.html

(accessed 19 September 2005).

13ـ انظر:

Bernard Lewis, What Went Wrong? Western Impact and the Middle Eastern Response (Oxford: Oxford University Press, 2002).

14- Huntington, Clash of Civilizations, p. 94.